

عظة في أحد الأعمى

الأرشمندريت تيخن تشيفكونوف

نقلتها إلى العربية أسرة التراث الأرثوذكسي

المسيح قام!

إن لرواية شفاء الأعمى اليوم أهمية خاصة لنا ولجيلنا. عندما سار المخلص بالقرب من الأعمى الذي كان معروفاً في جميع أنحاء أورشليم، لم يسأله شيئاً ولا حتى عن إيمانه. مرّ به وشفاه فصار الأعمى رجلاً يرى. بدأ الفريسيون باستجوابه وسألوه من الذي عمل هذا الخير العظيم له، وهو شيء كانوا هم أنفسهم عاجزين عن القيام به. راحوا يوبّخون الرجل وادانوا المخلص لأنّ إنجازه هذا العمل العظيم كان في يوم الرب أي السبت. لم يعثر الفريسيون على كلمة واحدة لدحض الحق الذي أشرق أمامهم متألقاً في هذه المعجزة غير المسبوقة، ومع ذلك لم يتمكنوا من كبح جماح أنفسهم، وفي حسدهم وغضبهم جَدّفوا على الله والروح القدس.

يتساءل البعض "ما هو التجديف على الروح القدس؟" هذه الخطيئة الرهيبة موصوفة في إنجيل اليوم: يرى الفريسيون قوة الله تتجلى في شفاء الإنسان الأعمى منذ ولادته، لكنهم مع ذلك ينكرون هذه القوة بعناد. يقولون ساخرين أعطوا مجداً لله، نحن نعلم أن هذا الرجل خاطئ. ولكن الرجل الذي سُفي يقول: "تَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ لَا يَسْمَعُ لِلْخَطَاةِ. وَلَكِنْ إِنْ كَانَ أَحَدٌ يَتَّقِي اللَّهَ وَيَفْعَلُ مَشِيئَتَهُ، فَلِهَذَا يَسْمَعُ. مُنْذُ الدَّهْرِ لَمْ يُسْمَعْ أَنَّ أَحَدًا فَتَحَ عَيْنَيْ مَوْلُودٍ أَعْمَى. لَوْ لَمْ يَكُنْ هَذَا مِنَ اللَّهِ لَمْ يَقْدِرْ أَنْ يَفْعَلَ شَيْئًا". فأخرجه الفريسيون من المجمع وفصلوه عن مجتمع بني إسرائيل. لقد حُرّم من جميع الحقوق. منذ ذلك الوقت، بحسب الشريعة اليهودية، لم يعد ممكناً لأحد أن يتعامل معه أو يساعده أو يعيش معه. حتى والدته ووالده تبرأ منه.

"أَبِي وَأُمِّي قَدْ تَرَكَانِي وَالرَّبُّ يَضْمُنِي." (مزمور ١٠: ٢٧)... في تلك اللحظة بالذات وجده المخلص بنفسه وقال له: أتؤمن بابن الله؟ الذي أبصر سأل: "من هو يا رب لأؤمن به؟" فقال له المخلص شيئاً مشابهاً جداً لما قاله للمرأة السامرية الأسبوع الماضي: "لقد رأيتماه كلاهما، وهو الذي يتحدث معك." لم يحتج الرجل المولود أعمى إلى دليل آخر. فسجد له كإله وقال "أؤمن يا رب."

ليس من باب المصادفة أن الكنيسة المقدسة شددت قبل أسبوع على نفس إعلان المخلص للمرأة سامرية خاطئة لكن نقيّة القلب. فكلاهما بحسب الأناجيل رأيا الله.

نحن كلنا جيل من الناس الذين ولدوا مكفوفين. غالبية جيلنا وُلدوا خارج الإيمان بالرب. بحسب خطة قديمة، كان ينبغي أن تظل أعيننا الروحية مغلقة حتى موتنا وأن الملايين والمليارات من الناس

يذهبون إلى الأبد دون معرفة الله، أو أرواحهم، أو حتى العالم الروحي نفسه. كل شيء كان مرتباً للتأكد من أننا، المولودون مكفوفين من أبوين ولدا أعميان بشكل أو بآخر، نبقى على هذا النحو إلى الأبد. لكن الله صنع لنا معجزة. دون أن يسألنا عمّا إذا كنا نؤمن أم لا، دون أن يعدّنا هذا السؤال، بل على العكس من ذلك مع العلم أن هذا الإيمان لم يكن فينا، مسحنا الرب بالطين والأحزان كما بالميرون المقدس، وملايين من الناس يشفون إذ تفتح عيونهم الروحية.

إن معاصرنا، وهم مكفوفين شفيوا، شابهوا الرجل الأعمى منذ ولادته إذ يتعرضون لمحاكمات صعبة واستجوابات واستهزاء من قبل فريسيي هذا العصر، وينقطع الكثير منا عن مجتمع أصدقائه وأقاربه. ما حدث للرجل الأعمى منذ ولادته في الأناجيل يحدث لكثيرين منا أيضاً.

لكن لماذا شفى المخلص هذا الرجل على وجه الخصوص؟ لماذا ظهرت معجزة الله في هذا الشخص بالذات، وليس في كل الحشد من الناس الواقفين بالقرب منه، الذين كانوا بئسين أو مصابين أو مرضى؟ قبل أسبوعين قرأنا في الأناجيل كيف أن المخلص شفى المخلع. كان ذلك الرجل متعطشاً وكان يأمل بالشفاء على مدار ثمانية وثلاثين عامًا. لكن الأعمى منذ ولادته لم يكن لديه حتى إيمان، لأنه لم يكن يعرف بمن يؤمن. ببساطة، هو لم يستطع رؤية الرب؛ لم ير الذي قال له اذهب اغتسل في بركة سلوام. كشف المخلص لاهوته لهذا الرجل بالذات، لأنه رأى مسبقاً اعترافه الشجاع أمام أعداء الحق، أعداء الله.

ومع ذلك، لماذا شفى رجل واحد ولا أحد غيره؟ لماذا مرّ المخلص بحشد البائسين والفقراء والمقعدين والمفلوجين، فأخذ واحداً منهم وشفاه؟ لماذا، من بين الملايين والمليارات من المولودين عميان، ليس سوى قطيع صغير يكتسب بصره روحياً؟ لماذا، من بين مئات الدول المختلفة التي تعيش في العالم، لا يعترف سوى عدد قليل منهم بالإيمان الأرثوذكسي الخلاصي؟

إنسانياً، هذا ليس عدلاً. إذا تكلمنا بشرياً نتساءل ما الذي يجعل العميان الآخرين أسوأ من هذا؟ ما الذي جعل المصابين الآخرين الملقين بجانب بركة سلوام أسوأ من ذلك المخلع الذي شفى؟ لماذا أنت وأنا (وكُلُّ منّا يعرف بقلة استحقاقه) أفضل من الملايين من إخوتنا وأخواتنا في هذا العالم، الذين لم يستنبروا بنور الإيمان؟

حتى أثناء حياة المخلص الأرضية، عندما سار على الأرض، لم يختَر من بين كثيرين إلا الذين انتقاهم. نفس الشيء يحدث الآن. حتى من بين كل هذه الأمم معاً، يختار الرب فقط أولئك الذين يراهم مناسبين. فمن هم بالنهاية الذين يختارهم المخلص؟

قبل آلامه، في العشاء الأخير، قال لتلاميذه "أنا اخترتكم من العالم (يوحنا ١٥:١٩). لاحقاً، في صلاته الكهنوتية، قال للآب "أيُّهَا الآبُ الْقُدُّوسُ، احْفَظْهُمْ فِي اسْمِكَ الَّذِي أَعْطَيْتَنِي" (يوحنا ١٧:١١). من

هؤلاء؟ الأثرياء والعظماء؟ بالطبع لا. فقط الفقراء؟ مجدداً، لا. كان من بين مختاري الله أناس من كل الطبقات. أو ربما كانوا أناساً أغنياء بشيء آخر، كالعقل والحكمة؟ لا شيء من هذا القبيل. كان هناك أشخاص حكماء أدركوا ضعف عقولهم، وكان هناك أميين تماماً، وحتى متباهيين، قديسين كُشفت لهم إعلانات غير عادية وغير متوقعة. ربما كان هؤلاء أغنياء بالخطايا، لأن الرب أرسل ليخلص الخطاة؟ لكننا نعلم أن الجميع خطأ أمام الله. أو ربما كان هؤلاء أغنياء في الإيمان؟ نعم، لقد طلب الرب إيمان البشر. لكنه شفى الرجل الأعمى منذ ولادته دون إيمان الأخير. لقد شفى الرجل المفلوج الذي دُلِّي من سقف البيت بعد كسره وأنزل أمامه (راجع مرقس ٢)، فقط بسبب إيمان أولئك الذين أتوا به. لكننا نعلم أيضاً أن الشياطين تؤمن وترتعد... فمن يختار الرب لميراثه؟

يقول الرسول في إحدى رسائله "أحياً لا أنا، بل المسيح يحيياً في" (غلاطية ٢: ٢٠). هؤلاء هم الذين يختارهم المخلص: الذين يستطيعون أن ينكروا أنفسهم ويصيروا مسكناً لله.

برعاية الله السرية للبشرية، يتم اختيار هؤلاء الأشخاص فقط، على الرغم من أنهم قد يكونون ضعيفي القلوب كالمخلع الذي خان المخلص قبل أسبوعين. حتى أنه يمكن أن يقول، ولو لمرة واحدة فقط في حياته، "انظروا، المسيح يحيياً في". كان من الممكن أن يصبح هيكلًا لله. كان يهوذا أيضاً هيكلًا لله في وقت من الأوقات! لكن الله سوف يسلم الذين يفسدون هيكل الله للفساد...

أحياً، لا أنا بل المسيح يحيياً في. كل من اختاره الله يمكنه أن يقول الشيء نفسه. لقد أبعد الإنسان القديم ووُلد المسيح فيه. لكن طريقة عيش المسيح فينا ليست على الإطلاق مجرد تكهنات، أي ليس فقط في أذهاننا. هناك العديد من المسيحيين المؤمنين بالمسيح في أذهانهم: البروتستانت والكاثوليك والذين يقولون ببساطة: نعم أناؤمن بالمسيح لكنني لا أُنتمي إلى الكنيسة. هناك أناس يتفلسفون عن المسيح، ويضعون افتراضات خيالية عنه، ويريدون أن يسمعوا عنه؛ ولكن ليست فيهم حياة المسيح. هم خارج جسد المسيح، خارج كنيسته. لذلك، من الواضح أن كثيرين من الذين سمعوا عن المسيح يعيشون خارج جسده، خارج ألوهيته.

بالطبع، نحن لا نتكلم عن هذا لكي نشعر بالفخر. نتحدث الكنيسة المقدسة عن المختارين على أنهم رحمة الله العظمى تجاه الأشرار، وفي هذا مسؤولية كبيرة. فالمختارون، للأسف، يمكن أن يكونوا مثل يهوذا أيضاً؛ الذين عاش فيهم المسيح مرة يمكن أن يرتدوا ويخونوا ويصلبوا مخلصهم فيما بعد.

إن اكتسابنا للبصر يتمثل في أن نبدأ نرى أنفسنا مملوءين بالخطايا وقادرين على كل شر وخيانة. إن اكتساب البصر يتمثل في رؤيتنا للعالم كما هو حقاً: مطروحاً في الشر. إن اكتسابنا للبصر يتمثل في أن نبدأ نرى ونقدّر رحمة الله العظيمة نحونا ونحو جميع البشرية العمياء في هذا العالم. أما إن لم نكن

نرى كل هذا، فمعناه أننا نعتقد فقط أننا نراه بينما في الحقيقة ما زلنا في عمانا الذي لا ينقذنا منه إلا
الرب!
المسيح قام.